على طراز ما رأيناه من أهمية المديح ، وعلى نحو ما نلمسه - مثلا - فى رثاء الشعراء للأمين أو المأمون ، أو تصوير فتنة النزاع الأسرى فى هذا المجال الأخوى ، أو تسجيل حيرة الشاعر إزاء ما يرى حين يرصده فى بُعْد حكمى يرسم من خلاله فلسفة العاجز على نحو قوله :

من رأى الناسُ له الفضـــــــــل عليـــــهم حســـــدوه
مثلما حسدَ القـــــــــــا ثـــمَ بالمـــلك أخـــــــوهُ

أو ما يشبه ذلك من تمزق انفعالى عكسته رثائيات الشعراء للخليفة المتوكل ، بدءاً من تصوير جريمة الاغتيال من خلال الجناة من الأتراك وتورُّط ابنه المنتصر معهم ، إلى غير ذلك من نماذج رثائية تغلف بهذا الطابع السياسى ، وتتوقف عند الغريب من الأمور فى باب السياسة أو غيره ، وتبدو بذلك أقرب إلى حس المؤرخ منها إلى حس الشاعر بالمعنى الدقيق .

وتتكرر أيضا أشباه لهذه المواقف فى تصوير الشاعر لطبائع الأحداث الجسام التى أصابت الدولة ، أو أرهقت الخلافة ، أو أزعجت الرعية ، على نحو مما تحكيه رثائيات الشعراء للمدن والممالك ، أو الحضارات والأمم ، إذ لاشك أن مرثية الشاعر لمدينة ما لابد أن تعكس أبعاداً تاريخية عميقة منطلقها أحداث عصره ووقائعه ، على نحو ما نجده فى ميمية ابن الرومى المشهورة فى رثاء مدينة البصرة ، أو تصويره جرائم ثورة الزنج وتجاوزاتهم مع رعايا الدولة من المسلمين ، وكذا كان الأمر فى رثائيات الشعراء لمدينة بغداد أو سامراء ، أو غير ذلك ، مما يتسع مجاله حين يتحول الأمر إلى رثاء مملكة ، أو تأمل تاريخ حضارة ، أو رصد وقائع أمة ، على نحو ما صنعه الشعراء العرب فى رثاء الأندلس التى عاشت فيها الحضارة العربية قرابة ثمانية قرون من الزمان .

أضف إلى هذه الصور السياسية للمرثية صورا أخرى بدت حربية تكاد تقترب منها فى رثائيات الشعراء للقادة ، أو تصوير حروبهم ، وتسجيل تاريخهم ، أو تاريخ تلك الحروب على النحو الذى أبرزته الرثائية المشهورة لأبى تمام فى محمد بن حميد الطوسى ، ومطلعها :

كذاَ فليجلُّ الخطْبُ وليَفْدَح الأمْـــرُ فليسَ لعَين لم يَفِضْ ماؤها عُـــــــذْرُ

وكذا كان ما احتوته مرثياته فى أبى سعيد الثغرى وغيره ، أو ماجاء فى سياق رثائيات مسلم بن الوليد ليزيد بن مَزْيَد الشيبانى ، أو غير ذلك لدى كثير ممن نظموا فى هذا